

أحركات الموحديّة الإصلاحية بين المفاهيم الدينيّة والصراعات السياسيّة

أ. د. يوسف عابد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة - قسنطينة

الملخص:

ظهرت رغبة سكان بلاد المغرب السياسيّة في تغيير حكام بلادهم منذ نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي وذلك على شكل ثورات وانتفاضات على الولاة العرب الوافدين.

وانطلقت من أبعد نقطة عن مركز نظام الحكم (القيروان) في بلاد المغرب. وهي بلاد السوس بالمغرب الأقصى، وقد شهدت المنطقة حين ذاك تنوعا قريبا (برغواطة، زناتة، ...صنهاجة ... الخ). هذا مع تنوع ديني نصرانيّة، يهودية، إسلام، وكان السكان جميعا محافظين ومتمسكين بالأعراف والتقاليد السائدة في الوسط الاجتماعي الريفي والحضري، الأمر الذي عمق سوء فهم أحكام الشرع الإسلامي.

مما أتاح الفرصة أمام السحرة والمشعوذين وأدعياء النبوة للظهور في هذه البيئة الدينيّة التي عرفت انتشار دعوة حركة الموحدين الإصلاحية.

Abstract:

The people of the Maghrib felt the political need for a change of the rulers of their countries since the end of the first quarter of the second century of the Islamic calendar- the 8th- C.A.D.- this need for a change took the form of revolutions and uprisings against the visiting arab governors.

This social and political unrest started in a place which is farthest from the centre of the power system- Cairouan- in Morocco. At that time, the whole region underwent a tribal renewal- Berghaouate, Zenata, Sanhaja, etc...-. In parallel, there was also a religious renewal: Christian, jewish, Islamic. All the people were conservative and close to the customs and traditions which existed in the rural and urban areas. As a consequence, the misunder standing of the Islamic legal rules deepened. That was an opportunity for sorcerers, charlatans and self- proelaimed prophets to appear in this religious environment where the activity of the movement for reform and unification expanded more and more.

عرض الموضوع:

عرفت أقاليم المغرب الأقصى انتفاضات سكانية منذ الربع الأول من القرن الثاني الهجري (122-740)¹ معلنة رفضها لأسلوب نظام الحكم الذي أسسه الفاتحون المسلمون، واتخذوا من الإسلام مفاهيم خاصة بهم. يعتمدون عليها في معارضة من يريد حكم بلادهم، ويعكسون رغبة مؤكدة في إضفاء طابع محلي على معتقداتهم في مجالات الحياة العامة.

ومن بين أهم الأقاليم التي عرفت تنوعا مذهبيا وجغرافيا إقليم السوس الأدنى والذي عُرف أيضا باسم تامسنا والذي أصبح جزءا من مملكة فاس² وكانت حدوده تنحصر بين نهر أبي الرقاق في الشمال ونهر أم الربيع في الجنوب وبين المحيط الأطلسي في الغرب وجبال الأطلس في الشرق³ وبغض النظر عن تغير مساحته اتساعا وانكماشاً فإنه كان إستراتيجيا وقد يكون موقعه هذا سببا في إنشاء عواصم المغرب الأقصى بالقرب منه⁴.

ومع أهمية موقعه هذا فقد تنوعت القبائل البربرية التي سكنته، ومن أشهرها قبيلة برغواطة المصمودية، وإلى جانبها سكنت قبائل من زناتة، وصنهاجة، وهوارة، ومطماطة، وكانت الزعامة البرغواطية تدين بخليط من المعتقدات منها الجوسية واليهودية والنصرانية

¹ - بدأت الثورة في إقليم طنجة (السوس الأدنى)، الرقيق لبقرواني، تاريخ إفريقية والغرب، تحقيق ونشر للنحى الكعبي طبع تونس 1967، ص 110.

² - الأبيكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والغرب، الجزائر 1967، ص 161.

³ - ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط 1973، ص 136.

⁴ - فمدينة فاس بنيت سنة 162هـ/808م، ومدينة مراكش التي بناها المرابطون عام 454هـ/1062م وكانت عاصمة لهم، ومدينة الرباط التي بدأ للموحدون في بنائها عام 545هـ/1150 (ابن سعيد المغربي، بسط الأرض، تطورات 1958، ص 72 الحسن الوزن، وصف إفريقيا، ج1، ص 26..

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
والإسلام¹. ومعنى ذلك أن غالبية السكان من البربر اعتنقت الإسلام خلال القرن
الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي، أما أقليتهم من اليهود والنصارى فقد ظلوا على
معتقداتهم. ويفهم من قول الحسن الوزان أن سكان هذا الإقليم كانوا محافظين على
عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم هي اللغة الإفريقية²، ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم
للعرب وعلاقتهم معهم.

ويبدو أن ترجمتهم للشعائر الدينية وبعض السور والآيات القرآنية إلى لغتهم قد زاد
الخلط والخروج عن فرائض الإسلام، وزاد من عدد الأتباع الذين وجدوا في ما جاء به
البرغواطيون يحقق لهم رغباتهم، فتمدد شعبهم ليتواصل مع قبائل أخرى مثل زناتة، وبعض
من صنهاجة، وأهم القبائل التي انضوت تحت لوائهم واتبعتهم في مذهبهم قبائل جراوة،
وزواغة ومنجصة، وبني أبي نوح³.

وقد انتقلت فكرة إدعاء النبوءات إلى الأقسام الشمالية من بلاد المغرب فقد
عرفت قبيلة غمارة توجهات مماثلة لما انتشر في بلاد تامستا، واستفحلت فيها أحوال
الزدة وتكرار ظهور النبوءات، فقد تنبأ فيهم حاييم سنة 414/1018م وشرع لهم ديانات
مستوحاة منه العقائد البرغواطية ثم جاء نبي آخر مزعوم هو عاصم بن جميل وبعده مرزوغ
الغماري سنة 559/1164م، وهكذا يظهر جليا أن منطقة الشمال المغربي عرفت صورا
خاصة من أحوال المروق عن الدين، وظهور المغامرين باسم الدين والذين يثيرون الفتن

¹ - ابن عتاري، البيان، ج1، ص 66.

² - اللغة الإفريقية التي يقصدها الحسن الوزان هي "أول أمزيغ" أي الكلام النبيل والتي تسمى البربرية:

وصف إفريقيا، ج1، ص 39.

³ - المراكشي، المعجب، ص 14-16.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
الدينية، غارقين في انحرافات أخلاقية ودينية مدعمة بأفكار مستوحاة من السحرة
والمشعوذين.

ولم تكن مدينة سبتة بعيدة عن هذا الحراك الاجتماعي ذو الأساس الديني فقد
كانت سبتة تملك هوية دينية متواصلة بالأساس مع الأندلس بذلك عاشت تشكل
هاجسا للدولتين المرابطية والموحدية، وعرفت ما يشبه الاستقلال الذاتي¹.
لقد كانت البيئة الدينية في بلاد المغرب مضطربة لا تكاد تتخلص من موجة
مذهبية حتى تعود لاستقبال أخرى، فهذا المذهب الخارجي وقد خفّت حدته وقلّ أتباعه
بالمغرب الأقصى ومع ذلك وقعت انتفاضة على بن رزين الجزيري سنة 579هـ/1184م
وانظم إليه خلق كثير، ظهر في بداية أمره بمراكش ثم توسع نحو الشمال².

وعلى الرغم من مرور خمسة قرون على انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب فإن
أحوال الخوارج بمجالاتهم المعروفة لم تتغير كثيرا، وشهد على ذلك التحاني بقوله: "ولا
زالت تقاسمهم مذاعب الوهية والتكارية، لا يؤاكلون الغرب في آيتهم، وإن استقضى
عابر سبيل ماء بعض آبارهم، استخرجوا ماء البئر كله لتطهيره، ولا يزالون تاركين صلاة
الجمعة لاشتراطهم وجود الإمام العادل لإقامتها³، وهذا يدل بوضوح على حجم العمل
الدعوي والتعليمي الذي تتطلبه البيئة الدينية خاصة في معازل السوس الأقصى وجبال
المصامدة وسجلماصة لأن سكان هذه المناطق يتحفظون على أفكار أهل السنة بغض
النظر عن صدقهم وتجردهم. فقد أدخل المصامدة عوامل أخرى في تقييم أهل السنة

¹ - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 228.

² - لين عزاري، البان الغرب، ج3، ص 141.

³ - التحاني ورحلته، ص ص 140-145.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
وطاعتهم كالمستوى الحضاري، والاقتصادي¹ حيث كان المصامدة يمثلون البربر المستقرين
والمزارعين، وأن الصنهاجيين صحراويين متخلفون وافدون على مجالاتهم².
إن أحسن من قدم وصفا عن البيئة الدينية التي ظهرت فيها حركة الموحدين هو
الإدريسي إذ يقول: "أهل السوس فرقان، فأهل مدينة تارودانت³ يتمذهبون بمذهب
الإمام مالك وهم حشوية، وأهل بلد تويوين يقولون بمذهب موسى بن جعفر (أي شيعة)
وبينهم أبدا القتال والفتنة وسفك الدماء⁴."

ومن المسائل التي أربكت البيئة الدينية التي شكلتها القبائل البربرية منذ بداية عهد
للمرابطين إلى غاية ظهور الموحدين، نجد المبادئ الأشعرية تحرك بعض الفقهاء والقضاة
ورجال الخاصة بصفة عامة، مما يوسع الهوة بين العامة والخاصة، فقد كان الغمام المازري
من أكبر المتحمسين لمقالات الأشعرين⁵، ويشهد على ذلك القاضي عياض عندما يشيد
بمكاته في إفريقية⁶.

¹ - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط2، تونس،
ص 123.

² - عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق،
ط1، بيروت 1983، ص 166.

³ - النويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق
وتعليق د/مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء 1984، ص 302.

⁴ - نزهة للمشاق، ج1، ص 228.

⁵ - السبكي، طبقات الشافعية، ج4، ص 124.

⁶ - محمد بن تاويت، القاض عياض، مجلة للناهل، ع19 سنة 1980، ص 8.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد

وأكد الأستاذ عمار الطالبي انتشار المبادئ الأشعرية في أوساط الفقهاء وعلى رأسهم الإمام ابن العربي (ت 543هـ/1148م) يظهر ذلك واضحا في كتابه العواصم من القواصم¹.

لقد عمد ابن تومرت على وضع قواعد عمل لتأسيس أدوات الصراع السياسي المنتظر، بعد أن فهم جيدا طبيعة البيئة الدينية لسكان بلاد المغرب، وتيقن من قوة تعصب المفاهيم السائدة في كل ناحية، وكان أول عمل قام في أثناء عودته من المشرق هو النزول إلى العوام، وتلقينهم المبادئ العامة للأشعرية².

يظهر من خلال السياق العام للأحداث أن ابن تومرت كان يهدف إلى إرباك الوضع العام وإبعاد العامة من الناس عن السلطة الحاكمة.

لذلك سارع المرابطون إلى مناقشة مسألة جواز أو عدم إطلاع العامة عليها، وأفضى النقاش بعلماء السلطة إلى ضرورة إخراج ابن تومرت من الحواضر حتى لا يفسد عقول العامة، حسب ما صرح به عبد الواحد المراكشي³، وأكد البيدق هذا التوجه العلمي حيث يقول: "إنه مر على ستة مواقع أو قرى صغيرة وبدأ يفظ القبائل ويدعوهم للخروج على السلطة المرابطية"⁴ التي عجزت عن إصلاح العادات العادات القديمة المناهضة للشريعة، ولمح إلى نشر عقيدة الأشعرية.

لقد كان ابن تومرت يدعو إلى إصلاح المجتمع ليستقيم أمر الدين الذي يقوم أساسا على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى يتجنب مواقف شيوخ القبائل المشكلة للوسط الديني، لم يعلن موقفه من المفاهيم الدينية المنتشرة في المجتمعين الحضري

¹ - آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، ش، الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1957، ص 100.

² - مجهول الحل الموشية ص ص 109، 113، 154.

³ - المعجب، ص ص 161-169.

⁴ - السابق، نفس الصفحات.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
والريفي، وإنما ركز على إظهار المفاصد الكبرى التي كرسها نظام المرابطين، حيث انتقد العلماء وحملهم مسؤولية تعاطي الناس المحرمات.

بعد أن لاحت بوادر نجاح دعوة ابن تومرت، راح يعزف على وتر العصبية القبلية إذ التفت إلى قبيلة مصمودية البربرية التي ينتمي إليها، وذكرهم بأوضاعهم التاريخية، موضحاً لهم الأوضاع الجديدة التي تتطلب التعاون والدفاع عن كيان القبيلة التي اضطهدت من قبل المرابطين سابق، وقال لهم: "فطالما كنتم في أيام زناتة يأثي الرجل على داره فيجد الزناتي بأمصاك فرسه على باب الدار فما شبعتم الخبز إلا في أيامنا لا كسبتم المال إلى في دولتنا"¹.

ولما اتضح لابن تومرت أن دائرة الأتباع توسعت وكراهية الناس للمرابطين اشتدت أخذ بأساليب مدروسة ومحسوبة تتراوح بين اللين والشدّة لأجل إشعارهم بضرورة حفظ المشروع².

وعليه فقد تعاملت معه العناصر المكونة للبيئة الدينية لما تيقنت من أن مذهب ابن تومرت لا يؤيد مفاهيم أخرى قد تكون معادية لها، ومعلوم أن ابن تومرت جمع في مذهبه مشارب من المذهب المالكي، والشافعي، ولم يكن معتزلياً أكثر منه أشعرياً ولا ظاهرياً. فقد كان يظهر شيعته أو خارجيته أو اعتزاله أو أشعرته بقدر ما تمليه الظروف والمواقف السياسية، لا أكثر.

مرحلة التأسيس للصراع السياسي:

بعد أن توترت واضطربت أحوال المجتمع حضره ورفهه، وانقسم الناس بين مناصر لدعوة ابن تومرت ومتحفظ عليها وبين السلطة المرابطية ومؤيديها توجه إلى تعبئة الناس انطلاقاً من طبيعة الذهنية المغربية المنحذبة بقوة نحو الغيبات والمقدسات، فراح يطرح

¹ - البندق، أخبار المهدي، ص 114.

² - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 177-180.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
أفكارا مناسبة لما يتطلبه الوضع، مثل إطلاق الموحدين على أنصاره وأتباعه لما رآه من رغبة
البربر في التوحد، وبذلك يزيد من عدد مناصريه، ويبتذل إدعاء خصومه الذين اتهموه
بالخارجي¹.

وبعد ذلك نظر ابن تومرت إلى العناصر المكونة البيئة الدينية المغربية خلال دعوته
ولما تيقن من وجود جمهور عريض يكتم تشيعه ويتطلع إلى إعلان ذلك حتى رأى الظروف
مناسبة، ذلك أدى إلى إعلان ابن تومرت مهاديته لا لشيء وإنما لاستقطاب المزيد من
العناصر البربرية المتعاطفة معه، ويبدو أنه كان مضطرا من وجهة النظر السياسية لإعلان
ذلك تحقيقا لأهدافه المستقبلية وتخطيا للعراقيل المتوقع ظهورها في تلك البيئة الدينية التي
تحمل مفاهيم دينية غامضة ومغرضة². هذا من جهة ومن جهة أخرى ثانية ليطمئن أهل
الشيعية وهم أكثر أنصار دعوته³. وحتى لا يغضب أهل السنة راح يعطي صورة مغايرة لما
عرف عن عصمة المهدي في المعتقد الشيعي، فقد أخذ محتوى العصمة من رأي أهل
السنة للإمامة، الذين يشترطون العلم والعدالة.

وهكذا تمكن ابن تومرت من تحييد العناصر غير المؤيدة لدعوته على الأقل⁴ ولم يبق
أمامه غير المرابطين المحسمين حسب أديباته المذهبية الأمر الذي دفعه على الانتقال إلى
مرحلة أخرى تمثلت في اتخاذ المبادرة العسكرية ضد المرابطين، ونقل ميدان القتال إلى
مناطقهم بين سنوات (518-523هـ، 1123-1128م)، ولم تدم مدة بقائه بعد ذلك طويلا
إذ وافاه الأجل بعد معركة البحيرة سنة 524هـ/1129م بثلاثة أشهر.

الصراع السياسي الداخلي:

¹ - السابق، ص ص 186.

² - عاشم العلوي، حركة المهدوية في المغرب الإسلامي، مجلة كلية الآداب بفاس، ع 10، سنة 1989.

³ - النجار، المهدي بين تومرت، ص 252.

⁴ - هاشم العلوي، السابق، ص 189.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد

بعد وفاة المهدي ابن تومرت تأكد أن اقتبس فكرة الإمامة المهدية لضرورات السياسة وذلك يرجع للوصية التي تركها فيما يتعلق بخلافة عبد المؤمن بن علي، والتي جاء فيها: " وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميرا عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله..."¹ وهذا على الرغم من وجود ثلاثة إخوة ذكور للمهدي ابن تومرت وهم شقيقه أحمد، وعيسى وعبد العزيز لوالدته².

ومع الوصية ظهرت مناقشة حادة على قيادة الحركة الموحدية، ولم يمنع تطور الصراع على قتال سوى الاختفاء خلف المقدس والأسطورة، فقد أشار بعضهم إلى أن ابن تومرت كان قد تنبأ بخلافة عبد المؤمن له عندما كانا بملالة³، ودعم البيدق هذا التوجه بقوله: "الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره وأقبل نحو المسجد، وركع ركعتين ثم قال، الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر وما النصر إلا من عند الله..." يصلكم غذا طالب طوي لمن عرفه وويل لمن أنكره⁴.

لقد مات المهدي ابن تومرت وأخفي خبر وفاته على الموحديين حتى لا ينفطر عقد الحركة الموحدية. وعمد المقربون إلى إيهام الناس بأنه مريض، وتصنعوا استشارته وتلقي أوامره، وهؤلاء نفر هم، عبد المؤمن بن علي، وإسماعيل إيكيك، وعمر بن عبد الله أزنك، وهم من أهل العشرة، وأبو محمد وأسنار من أهل الدار وزينب أخت ابن تومرت⁵،

¹ - المراهشي، المعجب، ص 287.

² - يقول ابن القطان: إخوته رضي الله عنه عيسى وعبد العزيز لأب، وأحمد الكفيف وأخته زينب والأخت الأخرى لأب...نظم الجمان، ص 74.

³ - ابن أبي زرع، روض القرطاس مصر 179، 180، 183.

⁴ - أخبار المهدي، ص 14.

⁵ - البيدق، السابق، ص 42.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
واستمرت الحال إلى سنة 527هـ / 1132م وكان تسيير شؤون الحركة الموحدية خلال هذه
الفترة جماعيا مع تفويض القيادة لعبد المؤمن¹، وتجمع الروايات التاريخية على أن سائر
الموحدين قد بايعوا عبد المؤمن وتسمى منذ سنة 528هـ / 1133م بأمر المؤمنين²، وهكذا
نستنتج أن الموحدين لم يطبقوا نظرية السلطة السياسية من فكرة الإمامة، فقد خرجت
السلطة من عقب الإمام، وانتقلت إلى أبعد من ذلك حيث خرجت من قبيلة هرغة
المصمودية إلى قبيلة كومية الزناتية.

بداية الصراع السياسي:

بعد بيعة العبد المؤمن العلنية غادر تينملل متوجها على قلعة تازكورت بدرعة
للاستيلاء عليها، لكن بمجرد أن خرج انتهز ابن ملوية الفرصة واتجه نحو أمير المسلمين
علي بن يوسف المرابطي، واتفق معه على مهاجمة تينملل فأمدّه الأمير بقوة مرابطية.
ولما وصل إلى مجال قبيلة كنفيصة وجد أحد زعمائها عبد الله وسدرن قد اتفق مع
الشيخ أبي سعيد يخلف على محاربة تلك القوة المرابطية، وتم قتله وحملت جثته إل تينملل
حيث صلبت³، ولعل دافع ابن ملوية للخروج على عبد المؤمن والانضمام للمرابطين، هو
أنه كان يرى نفسه أحق بخلافة ابن تومرت في قيادة الموحدين من عبد المؤمن، فهو كان
من أهل العشرة، ومن بين كبار قواد الموحدين، وعبد المؤمن نفسه يعترف بأنه كان مرؤوسا
له ويسمع أوامره أو على الأقل كان مساويا له في معركة البحيرة⁴.

اتساع دائرة الصراع السياسي:

¹ - ابن خلدون السير، ج6، ص 472.

² - البيدق، للقتبس، ص ص 30-31.

³ - البيدق، أخبار المهدي، ص 121.

⁴ - ابن القطان، نظم الجمان، ص 122.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد

بعد الصراع الذي دشنته أحد أفراد العشرة، ها هو يتسع إلى أقارب ابن تومرت حول السلطة بعد إسقاط مراكش وفتح تلمسان. حيث أمر عبد المؤمن بأن لا تباع نساء بعض المرابطين الذين انضموا إلى الحركة الموحدية مؤخرا وبدأوا في نصرة توجهات الدولة الموحدية. لكن أخوي ابن تومرت عيسى وعبد العزيز أخذوا ابنتين كرها على الخليفة¹.

وعندما انتقل عبد العزيز وعيسى برفقة يصلاح بن عمهما² إلى اشبيلية وبعض مدن جنوب غرب الأندلس كشلب وبطليوس وقادس، انكشف أمرهم حيث توافدت الأخبار المؤكدة بأنهم شرعوا في الاتصال ببقايا المرابطين ونسقوا معهم في حشد المعارضة للدولة الموحدية، وفي هذا الخصوص يقول ابن خلدون: " ... إن قرابة المهدي اعتمروا على الفتك بيوسف البطرورجي صاحب لبلة فلحق ببلده وأخرج الموحدون الذين بها وحول الدعوة عنهم ووصل يده بالمرابطين الذين كانوا بالعدوة وارتد ابن قسى في مدينة شلب، وبعد هذه النتائج المحفزة بالنسبة لأقارب ابن تومرت، عادوا إلى مراكش، وعلى إثر ذلك تبين لعبد المؤمن بن علي استخفاف أقارب ابن تومرت واستهتارهم بالسلطة الموحدية الناشئة التي يقودها عبد المؤمن، وعدوا أنفسهم أولى منه بتلك السلطة لأنهم من أقارب الإمام المهدي ابن تومرت.

ودخل عبد المؤمن في دائرة التريص بهم كما يفعلون، وأصبح كل طرف يحاول القضاء على خصمه، فعبد المؤمن يسعى جاهدا لتأكيد وتثبيت السلطة في ذاته، وأقارب ابن تومرت يحاولون استردادها منه، فكان لا بد أن يدخل الطرفان في صدام مباشر خاصة

¹ - البليدي، السابق، ص 38، ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 478.

² - ابن عذاري، البيان المغرب، ج 4، ص ص 36-37.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
وان دولة الموحدين بدأت تتلوق حلاوة النصر بعد ما بسطت نفوذها على أقاليم المغرب
الأقصى وجزء كبير من الأندلس واتجهت نحو المغرب الأوسط.

لقد قاد عبد المؤمن بن علي جيشا نحو المغرب الأوسط سنة 546هـ/1151م فدخل
جزائر بن مزغنة صلحا ثم انتقل إلى بجاية حيث انتزعها من بني حماد سنة 547هـ/1152م،
ثم عاد إلى مراكش بعد أن مكث ببجاية أزيد من شهرين¹ حيث رتب الأوضاع، وحذر
القبائل العربية من عواقب الشغب وفوضى العصيان ومع ذلك فإنهم استغلوا عودة عبد
المؤمن بن علي إلى مراكش وأخذوا يجمعون القوائم ويعارضون السلطة المحلية، الأمر الذي
دفع عبد المؤمن بن علي إلى تشكيل جيش من الموحدين بقيادة صهره عبد الله بن
وانودين ويصلاسن بن المعز قريب ابن تومرت، وبهذا تكون الفرصة قد أتحت ليصلاسن
الذي خذل عبد الله بن وانودين وتركه في المعركة وحيدا يواجه المصير المحتوم حيث هرب
عنه وأفرده للعرب فقتلوه².

لقد فهم عبد المؤمن بن علي الرسالة بسرعة، وجهز جيشا كثير العدد، وأمر عليه
عبد الله بن سليمان وقال له تخيل كيف تأخذ يصلاسن في البحر، وعليه قام عبد الله
بتكبير يصلاسن أثناء عودتهم في البحر، وجاء به إلى سبتة وسجنه ثم أعدمه³، ثم وضع
عبد المؤمن بن علي أخوي ابن تومرت تحت الرقابة ومنعهما من الخروج إلى أية جهة
كانت خارج مراكش⁴.

¹ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 192-193.

² - البيدق، أخبار المهدي، ص 74.

³ - السابق، ص 75.

⁴ - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 234.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد

ولما ضاق الأمر بأخوي المهدي حولا الفرار من مراكش، لكن واليها من قبل عبد المؤمن الشيخ أبو حفص بن تفرجي امتنع عن مساعدتهما، فقتلاه الأمر الذي أثار حفيظة إدارة المدينة التي سهلت الأمر لسكان مراكش فقتلوهما مع عبيدهما¹، وتابع عبد المؤمن بن علي أصحاب أخوي ابن تومرت بعد أن اكتشف المراسلات التي كانت بينهم وبين أقارب ابن تومرت، وبلغ عدد الذين شملتهم هذه الحملة التطهيرية ثلاثمائة كان فيهم خمسة رجال من أعيان الحضرة². وتصور إحدى الرسائل الرسمية³ عن رد فعل عبد المؤمن ورغبته في اتصال شناعة أي معارضة، وقد وقعت هذه الأحداث كلها سنة 549هـ/1154م.

الصراع بين عبد المؤمن وأهل الخمسين:

كان لمحاولة عبد المؤمن بن علي استمالة القبائل العربية أثر في بعض الزعامات القبلية البربرية، إذ خشيت أن تتقوى وتتوسع سلطته، فقامت ضده وتمثل هذا السلوك في موقف شيخ عائلة توندوت من قبيلة هسكورة السابقون إلى الانخراط في الدعوة الموحدية وهو أيضا ابن أحد الأعضاء "هيئة الخمسين" المسمى أبو بكر بن توندوت⁴ وهذا ما يستنتج من إحدى الرسائل التي وجهت إليه من طرف ابن عبد الحميد كاتب عبد المؤمن يحاول من خلالها ثنيه عن المعارضة والعودة على صف الخليفة، وقد عرض عليه العفو الخلفي⁵، وما نعرفه عن قبيلة هسكورة هو أنها كانت من بين القبائل التي اتصلت بعبد

¹ - البيهقي، أخبار المهدي، ص 51.

² - السابق، ص 79.

³ - مجموعة رسائل موحدية، العزاوي، ج2، ص 47.

⁴ - أحمد عزراوي، مجموعة جديدة من الرسائل للموحدية، ج1، ص 47.

⁵ - السابق، ج2، ص 25-26.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد

المؤمن سنة 552هـ/1157م، خلال جولته ببلاد السوس وأعلنت "توبتها" عن الخروج على سلطته¹، وهكذا تم لعبد المؤمن القضاء على حركات المعارضة الخطيرة، حيث جاء في رسالة الموحدين: "و لما نازلنا على مرحلة من أنسة عثّرنا الله وأوفى وفد جزولة وهسكورة وقبائل الكست من شيوخهم وأعيانهم وأهل الحل والعقد منهم مست أيدي المنة على ما كان عندهم من الشقاق والنفاق فوصلوا تائبين نادمين²."

ومن جهة أخرى دخل شيوخ المتصوفة بعد ثورة المريدن التي حدثت سنة 539هـ/1144م في علاقة مع الموحدين ثارة تكتسي طابع التحالف وأخرى التنافر والاصطدام المسلح إلى أن تمكن الموحدون من فرض سيطرتهم.

وبعد سقوط مراكش في أيدي الموحدين قامت ثورة أخرى في المغرب الأقصى انطلاقا من منطقة ماسة المتزامية الأطراف، ويظهر أن زعيم هذه الثورة كان ذا منحى صوفي هذه الثورة أقلقّت للموحدين لفترة إلى أن تمكنوا من القضاء عليها في النهاية.

وتبقى الأجوبة عن التساؤلات المتعلقة بتحول المتصوفة من الممارسة الروحية الفردية إلى طموح جماعي للوصول إلى السلطة، محل اجتهد الباحثين، وزيادة على ذلك فإن الذي يجب التأكيد عليه هو أن الهدف هنا ليس البحث عن جذور التصوف في بلاد المغرب، بل تلمس بعض نقاط التحول خلال القرن السادس الهجري عندما كانت العامة تلتجئ إلى المتصوفة كلما تعرضوا لجور العمال أو أحسوا أنهم سيتعرضون له.

¹ - السابق، نفس الجزء والصفحة.

² - مجموعة رسائل موحدة الغزوي، ج2، ص 88.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد

وقد أورد ابن الزيات روايات متعددة في هذا الموضوع¹ ولعل موقف المتصوفة من عامة الناس الأمر الذي دفع بعض المتصوفة ذوي الطموح السياسي إلى أن يستغلوا هذه الوضعية، ويخرجون عن أموالهم لل العامة ويعدونهم بالأموال الطائلة².

وقد ثبت توظيف التصوف في الفكر السياسي، فقضية الولاية والغمامة في الصراع السياسي بين المتصوفة والمرابطين، وبين المتصوفة والموحدين فابن الخطيب يقول عن ابن قسي: "وابنتي -رابعة بقرية- كان يجمع بها دائرته التي دارت بها المنطقة دائرة سوء وادعى الولاية"³.

ترسيخ الخلافة الوراثية:

في سنة 550هـ/1155م جمع عبد المؤمن صغار الطلبة الذين كانوا يعرفون بالحفاظ من كل من إشبيلية وقرطبة وفلس وتلمسان، وكانوا قد اختيروا من أبناء أسر معروفة ضمهم إلى من انتخبهم من أبناء قبائل الموحدين، فبلغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف فرد⁴، وأنشأ عبد المؤمن لهؤلاء الطلبة مدرسة تكوين الإداريين، فبالإضافة على قراءة متون ابن تومرت كانوا يمارسون أنواعا من الرياضة، فقد كان عبد المؤمن يؤهلهم لتولي الوظائف الإدارية في البلاد ويوصل فيهم الولاء للدولة، فقد قال صاحب الحلل أنه قصد من وراء تكوينهم هذا سرعة الحفظ والتربية على ما يريد⁵ وقد كان من بين هؤلاء الحفاظ ثلاثة عشر من أبناء الخليفة تكونوا على نفس الطريقة.

¹ - التشوف، ص ص 130-131.

² - ابن الزيات، السابق، ص 459.

³ - أعمال الإعلام، ص 249.

⁴ - مجهول الحلل الموشية، ص 150.

⁵ - السابق، نفس المصدر والصفحة.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
يدخل هذا التحضير في أهداف تركيز السلطة في أيدي عبد المؤمن ومنع أية محاولة
لانفصال أية جهة من جهات مجال نفوذه أو خروجا عن مراقبته.
لقد أسند حكم الأقاليم التي كانت تحت سلطته إلى أبنائه¹، وهذا طريق عجيب
في التحايل للوصول إلى الحكم.

لقد عين أبا محمد عبد الله على بجاية وأحوازها، وأبا سعيد عثمان على سبتة
وطنجة والجزيرة الخضراء، وأبا الربيع سليمان على تادلة، وأبا زيد على السوس، وقد تمت
هذه التعيينات خلال سنة 551هـ/1156م، وبهذه الإجراءات تحولت الحركة الموحدية إلى
دولة لا يختلف نظامها السياسي عن النظام السياسي لسابقتها الدولة المرابطية في شيء،
حيث أصبح نظام ولاية العهد وراثيا بإعلان أكبر أبناء عبد المؤمن محمد واليا للعهد
ومبايعته بذلك رغم أنه لم يتمكن من خلافة والده بعد وفاته، حيث انتقلت الخلافة إلى
أخيه يوسف.

وهكذا يتجلى أن فترة الانتقال بين المرابطين والموحدين لم تأت بمجديد من حيث
الممارسة رغم ما يظهر من اختلاف على المستوى النظري بين النظام السياسي المرابطي
المبني على ولاية العهد وتوريث السلطة، وبين النظام السياسي الموحيدي المرتكز على سلطة
الإمام التي تورث في الأعقاب، حسب المصدر الشيعي الذي اقتبس منه ابن تومرت، لكن
المفارقة هي أن ولاية العهد وتوريث السلطة عند الموحدين لم يكن تطبيقا للنظرية، بل
تكريسا للواقع وبذلك عاد المغاربة إلى ما كانوا عليه خلال العصر المرابطي في الممارسات
السياسية الفعلية.

¹ - النويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ص 419.

الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد

لقد انتقل المغرب من شكل نظام أميرية المسلمين التي امتدت سيادتها الجغرافية إلى أجزاء من غرب المغرب الأوسط، وأعلنت الولاء الاسمي للخلفاء العباسيين في بغداد إلى خلافة للمؤمنين في المغرب الإسلامي كله ولم تخف رغبتها في مد سيادتها على باقي شرق العالم الإسلامي وبذلك انقطعت الدعوة العباسية بالمغرب لبني العباس¹.

المصادر والمراجع:

- الإدريسي (الشريف): وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تصحيح ونشر هنري بيريس، الجزائر 1957م.
- ابن أبي زرع الأتيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور، الرباط، 1973م.
- البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، نشر دي سلان، الجزائر، 1957م.
- أبو بكر (ابن علي الصنهاجي) المكنى بالبيدق:
- أخبار المهدي ابن تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م.
- المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1971م.
- ابن تومرت محمد: - أعز ما يطلب، نشر لوسياتي، الجزائر، 1903م.
- التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد): رحلة التجاني، تونس، 1958م.
- الحسن الوزان (الفارسي): وصف إفريقيا، ترجمة محمد مجي ومحمود الأخضر، الرباط، 1980م.
- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، بيروت 1983م.

¹ - المراكشي، المعجب، ص 297.

- الحركة الموحدية الإصلاحية ----- أ.د. يوسف عابد
- الرقيق (إبراهيم ابن القاسم): تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، طبع تونس، 1967م.
- لوتورنو روجي: حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12، 13 الميلاديين، ترجمة أمين الطيبي -ليبيا-، تونس، 1982م.
- ابن سعيد (علي بن سوس): كتاب الجغرافيا، طبع بيروت (د.ت).
- السبكي (عبد الوهاب): طبقات الشافعية الكبرى (42)، ط2، بيروت، (د.ت).
- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، 1983م.
- ابن عذاري: البيان المغرب، تحقيق ومراجعة س، كولان وليفي برونسال، ط2، بيروت، 1984م.
- عبد المجيد النجار: المهدي ابن تومرت، حياته وآراءه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.
- عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ط1، بيروت، القاهرة، 1983م.
- المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أطباء الأندلس والمغرب، ط7، ضبط وتصحيح وتحقيق محمد سعيد الويان، ومحمد الوبي العلمي - الدار البيضاء، 1976م.
- مجهول: الحلال الوشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمache، طبعة دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979م.
- التويري: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984م.